الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

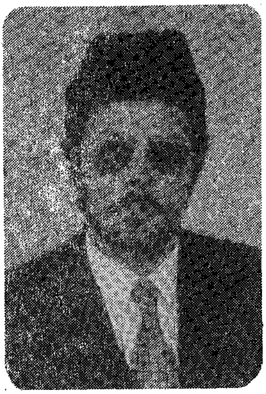

إعداد : الأستاذ عبد الله الفليوي

اتفقت كلمة العلماء على أن القرآن الكريم لم يعجز الناس على أن ياتوا بمثله من ناحية واحدة، وإنما أعجزهم من نواح متعددة : لفظية ومعنوية وروحية، تساندت وتجمعت فأعجزت الناس أن يعارضوه.

واتفقت كلمتهم أيضا على أن العقول لم تصل حتى الآن إلى إدراك نواحي الإعجاز كلها وحصرها في وجوه معدودات.

وكلما زاد التدبر في آيات القرآن الكريم، وكشف البحث العلمي عن أسرار الكون وسننه، وأظهر — عَبْرَ السنين — عجائب الكائنات الحية وغير الحية، تجلت نواح من نواحي إعجازه، وقام البرهان على أنه من عند الله.

القرآن الكريم أنزله الله على رسوله ليكون حجة ودستورا للناس، وليس من مقاصده الأصلية أن يقرر نظريات علمية في خلق السموات والأرض، وخلق الانسان وحركات الكواكب، وغيرها من الكائنات، ولكنه في مقام الاستدلال على وجود الله ووحدانيته، وتذكير الناس بآلائه ونعمه، ونحو هذا من الأغراض، جاء بآيات تُفهَم منها سنن كونية، ونواميس طبيعية، كشف العلم الحديث في كل عصر براهينها، ودل على أن الآيات التي لفتت إليها من عند الله، لان الناس ما كان لهم بها من علم ولا وصلوا إلى حقائقها، وإنما كان استدلالهم بظواهرها، فكلما كشف البحث العلمي سنة كونية، وظهر أن آية في القرآن أشارت إلى هذه السنة قام برهان جديد على أن هذا القرآن من عند الله، وإلى

هذا الوجه من وجوه الإعجاز أرشد الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿قل أرايتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به مَن أضلَّ ممن هو في شقاق بعيد، سنريهم آياتنا في الافاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكْفِ بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ سورة فصلت ــ الآية **41**

إذن ليست مهمة القرآن الكريم أن يتحدث إلى عقول الناس عن مشكلات الكون وحقائق الوجود العلمية، وإنما هو كتاب هداية وإرشاد للناس في حياتهم الدينية والدنيوية.

ولكن مع ذلك لم تخل آياته من التعبيرات الدقيقة والإشارات الخفية إلى حقائق كثيرة في المسائل الطبيعية والطبية والجغرافية، مما يدل على إعجاز لقرآن وكونه وحيا من عند الله.

ومن الثابت تاريخيا أن محمدا ﷺ، فضلا عن كونه أميا قد نشأ في مكة، حيث لم تكن هناك علوم ولا معارف ولا مدارس تقرأ فيها العلوم الكونية والعلوم الطبيعية، كما أن محمدا ﷺ كان بعيدا عن المحيط العلمي الذي كان موجودا في الشام والاسكندرية وأثينا، ومع ذلك فإن كثيرا من النظريات العلمية التي أشار إليها القرآن لم تكن معلومة في عصره ــ أي في القرن السابع الميلادي ــ وإنما عرفت حديثا.

وبعض الباحثين لا يرتضون الاتجاه إلى تفسير آيات القرآن بما يقرره العلم من نظريات ونواميس، وحجتهم أن آيات القرآن لها مدلولات ثابتة ومستقرة لا تتبدل، والنظريات العلمية قد تتغير وتتبدل، وقد يكشف البحث الجديد خطأ نظرية قديمة.

إلا أن هذا الرأي غير سليم، لأن تفسير آية قرآنية بما كشفه العلم من سنن كونية ما هو إلا فهم للآية بوجه من وجوه الدلالة على ضوء العلم، وليس معنى هذا أن الآية لا تُفهَم إلا بهذا الوجه من الوجوه، فإذا ظهر خطأ النظرية ظهر خطأ فهم الآية على ذلك الوجه لا خطأ الآية نفسها، كما يفهم حكم من آية ويتبين خطأ فهمه، بظهور دليل على هذا الخطإ.

ومن جهة أخرى فإنه لا يجوز ربط القرآن الكريم بالنظريات العلمية، وهذا أخطر ما نواجهه، ذلك أنَّ بعض العلماءِ في اندفاعهم في التفسير، وفي

محاولاتهم ربط القرآن بالتقدم العلمي، يندفعون في محاولة ربط كلام الله بنظريات علمية مكتشفة، ثم يثبت بعد ذلك أنها غير صحيحة، وهم في اندفاعهم هذا يتخذون خطوات متسرعة، ويحاولون إثبات القرآن بالعلم. فالقرآن ثابت ثبوتا قطعيا ليس في حاجة إلى العمل لإثباته، فهو كتاب هداية وعبادة، وليس كتاب«علم»بالمعنى الاصطلاحي المتعارف اليوم، ولكن الله سبحانه وتعالى في سابق علمه علم أنه بعد عدة قرون من نزول هذا الكتاب الكريم سياتي عدد من الناس ويقولون : انتهى عصر الايمان وبدأ عصر العلم.

ولذلك وضع في كتابه ما يُعجز هؤلاء الناس، ويثبت أن عصر العلم الذي يتحدثون عنه قد بينه القرآن الكريم في صورة حقائق كونية منذ أربعة عشر قرنا، ولم يكتشفها العقل البشري إلا في السنوات الماضية.

وعطاء القرآن الكريم متجدد، مصداقا لقوله تعالى : ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ سورة فصلت الآية 53.

وحرف «السين» في كلمة «سنريهم» تفيد المستقبل القريب والبعيد.

إن عطاء القرآن الكريم مستمر لهذا الجيل ولكل الأجيال التي ستأتي بعد، ومن ثم، فإن الله سبحانه وتعالى قد أعلمنا أن هناك حقائق وآيات سيكشف عنها لكل جيل، ولكن ليس معنى هذا أن نحمل معاني القرآن أكثر مما تحتمل، وأن نتعامل معه على أساس أنه كتاب جاء ينبئنا بعلوم الدنيا، فالقرآن لم يأت ليعطينا أسرار علم الهندسة، أو علم الفلك، ولكن القرآن الكريم أتى بأكثر من ذلك، أتى بما يمكن أن نرد به على أعداء الدين إلى يوم الدين.

ولهذا فإن آيات الكون الكبرى التي أنبأنا الله بها فى القرآن الكريم والتي نعرف بعضها، وبعضها لا نعرفه معرفة اليقين حتى الآن، أرادنا الله سبحانه وتعالى أن نرد بها على أولئك الذين يقولون : «انتهى عصر الإيمان وجاء عصر العلم» وأن يقول لنا : إن العلم الذي يحاول بعض المُضِلين أن يتخذوه إلاها جديدا هو من خلقي ومن علمي، فلا تعبدوا المخلوق وتتركوا الخالق.

وبعض الناس يتخذون العلم كدليل على صحة القرآن، وهذا خطأ كبير. فالقرآن الكريم ثابت ثبوتا قطعيا، وهو كلام الله، والله منزه عن كل خطإ،

وبالتالي، فإن القرآن هو الدليل على صحة العلم أو عدم صحته، وكل علم يتناقض مع القرآن يعتبر علما كاذبا وغير صحيح.

إن القرآن الكريم هو كلام الله المتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة لا تغيير فيه ولا تبديل، ومن ثم، فإن خطورة ربط القرآن الكريم بنظريات علمية كاذبة، تجعل موقف المفسر في حرج، فهو لا يستطيع أن يغير أو يبدل في كلام الله، ولذلك يجب أن ندرس بإمعان، وننتظر حتى تثبت الحقيقة العلمية ثبوت اليقين، قبل أن نتحدث عن ربطها بالقرآن الكريم، ولا نأخذ حديثا براقا يكون مجرد فرض، وليس حقيقة علمية، ونسرع فنربطه بكلام الله، وحينئذ نكون قد ارتكبنا خطأ كبيرا في حق القرآن الكريم، عندما يثبت خطأ هذا الافتراض.

نأتي بعد هذا إلى بعض الحقائق الواردة في القرآن وما يقع من إساءة تفسيرها بشكل يتصادم مع الحقيقة العلمية، ذلك أن بعض العلماء يقولون إن الله سبحانه وتعالى قد قال في كتابه العزيز : ﴿والأرض مددناها﴾، ومعنى المد : البسط، أي بسطناها، ونحن نرى الأرض مبسوطة أمامنا، فلا تناقض بين القرآن الكريم وبين الظاهرة الموجودة، ولكن عندما اكتشفت كروية الأرض ثار بعض العلماء واتهموا كل من يقول إن الأرض كروية الشكل بالكفر والالحاد، لأن القول بذلك حسب زعمهم، يخالف القرآن الكريم.

إن هؤلاء أساءوا تفسير حقيقة قرآنية، لأن الله سبحانه وتعالى أعطانا الدليل، بل أكثر من دليل على أن الأرض كروية الشكل.

فالله سبحانه وتعالي قال : ﴿والأرض مددناها﴾. سورة الحجر الآية 7. أي بسطناها، ذلك أنك أينما تنظر تراها مبسوطة، إذا كنت في خط الاستواء، فالأرض أمامك مبسوطة، وإذا انتقلت إلي القطب الجنوبي فالأرض أمامك مبسوطة وإذا كنت في القطب الشمالي فالأرض أمامك مبسوطة، وإذا كنت في أوربا أو أمريكا أو آسيا أو أي قارة من قارات الأرض، فالأرض أمامك مبسوطة، الأرض مبسوطة، أمام البشر جميعا في كل موقع يتواجدون فيه، وهذا الأمر لا يمكن أن يحدث إلا إذا كانت الأرض كروية الشكل، فلو كانت الأرض مسطحة، أو مربعة أو مثلثة أو مسدسة، أو في أي شكل من الأشكال، لوصلنا فيها إلى حافة. وحيث إنه لا يمكن لك ان تصل في الأرض إلى حافة، فالشكل الوحيد الذي تراه مبسوطا أمامك ولا يمكن أن تصل فيه إلى حافة هو نفسه دليل على أن الأرض كروية الشكل.

وهكذا أبلغنا القرآن في كلمتين اثنتين ﴿والأرض مددناها﴾ أن الأرض كروية الشكل، وفي نفس الوقت اختار العبارة التي لا تتصادم مع مفهوم العقل البشري في وقت نزول القرآن، وفي كلمتين اثنتين، أعطانا الله السر في الأرض : إعجاز لا يمكن أن يكون قائله بشراً.

وفي آية أخرى، أعطانا الله سبحانه وتعالى، أيضا في أربع كلمات، أنه خلق الأرض على هيئة كروية، أي أنها كانت كذلك ساعة الخلق.

يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار﴾ سورة يس الآية 40.

والحديث هنا عن قوانين الكون : الشمس لا تدرك القمر، لأنهما كما قال العلماء يتحركان في خطين متوازيين لا يلتقيان أبدا، هذه حقيقة علمية ظهرت في السنوات الأخيرة، وذكرها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا.

ولكن ما معنى «ولا الليل سابق النهار» ؟

المعنى هنا نفي لشيء كان موجودا ولكنه لم يكن صحيحا.

يريد الله سبحانه وتعالى أن يصححه، ويزيل عنه الخطأ.

العرب كانوا يقولون : «إن الليل سابق النهار»، واليوم عند العرب يبدأ بغروب الشمس، بمعنى أن رمضان يثبت بعد غروب شمس آخر يوم من أيام شعبان، والعيد يثبت بعد غروب شمس آخر يوم من أيام رمضان.

وإذا كان العرب يقولون إن الليل سابق النهار، فمعنى ذلك أن النهار لا يسبق الليل.

أما أن «النهار لا يسبق الليل» فقد تركها الله كما هي ولم يتعرض لها، لأنها حقيقة صحيحة، بينما «الليل يسبق النهار» خطأ صححه الله تعالى بقوله : «ولا الليل سابق النهار».

إذن، وُجدت عندنا حقيقتان : لا النهار يسبق الليل، ولا الليل سابق النهار، يعني أن الليل والنهار موجودان معا على الأرض في آن واحد، وهذا لا يتأتى الا إذا كانت الأرض كروية الشكل.

ولكن ليس هذا هو القصد النهائي من الآية، فالله سبحانه وتعالي أراد أن يصحح هذا الخطأ، ويقرر أن الليل والنهار موجودان منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها.

فلو أن الله سبحانه وتعالى خلق الأرض مسطحة، فإما أن تكون الشمس ساعة الخلق في مواجهة السطح، وحينئذ يكون النهار سابق الليل، وإما أن تكون الشمس ساعة الخلق غير مواجهة للسطح، وحينئذ يكون الليل سابق النهار.

ولكن الله سبحانه وتعالى يقول لنا إن النهار والليل خلقا معا ولم يسبق أحدهما الآخر، أي أن الأرض كروية الشكل، لأنه الشكل الوحيد الذي يوجد فيه الليل والنهار معا.

ننتقل بعد هذا إلى قضية دوران الأرض حول نفسها، لنرى أن الله سبحانه وتعالى يمسها في القرآن الكريم كحقيقة كونية.

يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة النمل الآية 88 ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرُّ مَرَّ السحاب، صُنْعَ الله الذي أتقن كل شيء﴾.

الجبال رواسي في الأرض، مفروض أن تمنعها الأرض من الحركة، وإذا نظرت إلى ضخامتها تعتقد أن الأرض ثابتة لا تتحرك، فيقول الحق سبحانه :

﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾ قال ﴿تحسبها﴾ رحمة بالعقل البشري، لأن الانسان يظن أن الجبال جامدة، وهو سبحانه يريد أن يخبرنا أن الجبال التي تحسبها جامدة وثابتة تتحرك كما يتحرك السحاب، لأن السحاب يحتاج إلى الرياح ولا يتحرك من تلقاء نفسه، والجبال تحركها الأرض ولا تتحرك بنفسها، و من ثم كان التشبيه بين الحركتين : حركة السحاب بسبب الرياح، وحركة الجبال بسبب الأرض.

وهكذا مس القرآن الكريم دوران الأرض بشكل بديع بين لنا فيه أن الأرض تدور حول نفسها، وأن الجبال التي هي أوتاد الأرض تتحرك تابعة للأرض في حركتها رغم أننا نحسبها جامدة.

ونتكلم الآن عن مسألة أخرى شغلت بال الباحثين في العلوم الطبيعية، وهي مسألة الذرة. (L'ATOME) .

فالعلماء الطبيعيون، وإلى غاية القرن التاسع عشر، ظلوا يعتقدون أن الذرة هي أصغر جزء من المادة، وأنها لا تقبل التجزئة.

إلا أن القرآن الكريم، الذي نزل منذ أربعة عشر قرنا أشار إلى أن الذرة قابلة للتجزئة.

يقول سبحانه وتعالى : ﴿وما يعْزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ يونس / 60

وفي آية أخرى : ﴿عالم الغيب لا يَعْزُب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبرُ إلا في كتاب مبين﴾ سبأ / 2

إن أصغر جزء يمكن أن يكون في المادة هو عنصر ما يسمى بالذرة، وقلنا إن هذا الاعتقاد عند العلماء الطبيعيين ظل قائما إلى غاية القرن التاسع عشر.

وخلال عشرات السنين الماضية وجّه كثير من رجال العلوم الطبيعية اهتمامهم إلى مشكلة تقسيم الذرة التي لا تتجزأ، فوصلوا أخيرا إلى أنها تتجزأ، ووجدوها تحتوي على العناصر الآتية : النواة، البورتون، النيوترون والايكلترون.

فكلمة «أصغر» من الذرة الواردة في الآيتين الكريمتين تصريح واضح بإمكان تجزئتها.

وفي قوله تعالى : ﴿ولا في السماء﴾ بيان بأن خواص الذرات التي في الأرض هي نفس خواص الذرات الموجودة في الشمس والنجوم والكواكب، أي أنها تحتوي على الأجزاء التي سبق ذكرها.

ومن وجوه الاعجاز العلمي أيضا مسألة تتعلق بنقص الاوكسجين في الارتفاعات العليا.

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام، ومن يرد أن يُضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصّعّد في السماء﴾ سورة الأنعام الآية 125.

فمنذ ارتياد الطبقات العليا بفضل الطيارات والبالونات، استطاع الإنسان أن يدرك ظاهرة طبيعية تنتج عن نقص أوكسجين الهواء في تلك الطبقات، إذ يشعر الصاعِد في هذا العلو ببعض الصعوبة في التنفس ويحس بالضيق. وهنا نسجل اتفاقا رائعا للآية الكريمة مع الواقع العلمي.

استمرار المعجزة :

إن القرآن الكريم حينما نزل كان له أكثر من معجزة، تحدى العرب في بلاغتهم، ثم مزق حواجز الغيب الثلاثة : مزق حجاب الزمن الماضي، وروى لنا بالتفصيل تاريخ الرسل وحوادث من سبقنا من الأمم، وتحدى فيها، ثم مزق حجاب المكان، وروى لنا ما يدور داخل نفوس الكفار الذين كانوا يحاربون الاسلام وما يبيتونه للمسلمين، وروى لنا ما يدور داخل نفوسهم ولم تنطق به شفاههم، ولم يجرؤ واحد منهم أن يكذب القرآن ويقول : لم تهمس نفسي بهذا، ثم مزق حجاب المستقبل القريب، وتنبأ بأحداث ستقع بعد شهور، وبأحداث ستقع بعد سنوات، وتحدى، وحدث كل ما أنبأ به القرآن.

ثم بعد ذلك مزق القرآن حجاب المستقبل البعيد، ليعطي الأجيال القادمة من إعجازه ما يجعلهم يصدقون القرآن ويسجدون لقائله، وهو الله تعالي، ولكن القرآن نزل في زمن لو أن هذه المعجزات المستقبلة جاءت تفصيلية لكَفَرَ عدد من المومنين وانصرف آخرون، ذلك لأن الكلام عن هذه المعجزات كان فوق طاقة العقول البشرية في ذلك الوقت، ومن هناك، وحتى لا يخرج المؤمن عن إيمانه، ويستمر الإعجاز، جاء القرآن بنهايات النظريات، بقِمة نواميس الكون، إذا تُليت على المومنين في ذلك الوقت مرت عليهم دون أن ينتبهوا إلى مدلولها الحقيقي العلمي، وإذا تليت بعد ذلك على الأجيال القادمة عرفوا ما فيها من إعجاز، وقالوا إن هذا كلام لا يمكن أن يكون قائله بشرا عاش منذ أربعة عشر قرنا.

إذن فلا بد أن هذا القرآن حق من عند الله، وأن قائله هو الله خالق كل شيء. ولكن هل وقع مثل هذا في الأحكام الدينية ؟ الجواب لا.

إن أحكام الدين «افعل ولا تفعل» نزلت كاملة واضحة لا لبس فيها ولا إضافة عليها، ولا تبديل ولا غموض، منهج الله كامل، فسَّرته الاحاديث القدسية والأحاديث النبوية، وشرح وفسر في عهد الرسول ﷺ تفسيرا كاملا، بحيث أصبح واضحا لكل إنسان يريد أن يعبد الله، وأن يعيش في الأرض طبقا لقوانين الله «افعل ولا تفعل» جاءت هذه الأحكام الدينية واضحة، وكملت وفسرت في عهد الرسالة وأصبح الحلال بينا والحرام بينا.

أما آيات الله في الكون فنلاحظ أنها لم تفسر تفسيراً كاملا في عهد الرسول ﷺ حتى لا تكون ملزمة للمسلمين، لماذا ؟
لأن لهذا عطاء يتجدد في كل الأجيال.

لقد تحدى القرآن العرب بالإعجاز في اللغة، طلب أن ياتوا بمثل هذا القرآن، ثم زاد في التحدي وقال بسورة من مثله.

ولكن التحدي للعالم اليوم لا يكون باللغة، فاللغات مختلفة، إذن بماذا يتحداهم؟ يتحداهم بالعلم ! وكان التحدي مطلقا إلى يوم الدين، قال: أنتم جميعا لن تستطيعو/أن تخلقوا شيئا حتى نهاية العالم، ثم تحداهم بخلق أضعف المخلوقات. يقول الحق سبحانه : ﴿يأيها الناس، ضرب مَثَل فاستمعوا له، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب، ما قدروا الله حق قدره، إن الله لقوي عزيز﴾ الحج / 73 — 74.

هكذا تحدى الله سبحانه وتعالى البشرية كلها إلى يوم الدين، تحداهم بأن يخلقوا ذبابة وقال : إن «العلم» الذي ستعبدونه من دون الله والذي ستومنون به، هذا العلم وكل القائمين عليه، لن يستطيعوا أن يخلقوا ذبابة ولو اجتمعوا كلهم على ذلك.

وقد حاول الملحدون أن يتطاولوا على هذه الآية الكريمة وتجرؤوا وقالوا إن بإمكانهم أن يصنعوا ما هو أقل من الذباب، أن يصنعوا جرثومة عن طريق التفاعل الكيماوي. وسار الانسان في هذا الطريق، ليجرب حظه في الالحاد والتحدي، وحاولت روسيا أن تبرهن على إمكانية نشأة الحياة كيماويا، وذلك، في زعمها، كدليل تثبت به مذهبها الالحادي. وكان أن كلفت بهذا الموضوع «أو بارين» رئيس المعهد الكيماوي في الاتحاد السوفياتي (أي ما أصبح يسمى بمجموعة الدول المستقلة) وطلبت منه أن يتفرغ للبحث في أمر واحد، وهو مدى إمكانية إيجاد الحياة عن طريق التفاعل الكيماوي، وبعد عمل متواصل قارب عشرين عاما، أعلن حوالي سنة 1962 م عن انتهائه من دراسة هذا البحث، وأعلن عن النتيجة التي توصل إليها في تقرير رسمي أذاعته جميع وكالات الأنباء في العالم إذ ذاك، وهي أن العلم الكيميائي عاجز عن إيجاد «الحياة» والعلم لا شأن له إلا بالمادة المحسوسة.

وبدلا من أن يعترف أن الله هو خالق الحياة، أجاب على سؤال كانت صيغته : هل التفاعل الكيميائي في المادة قادر على بعث الحياة، كما انبعثت الحياة الأولى منذ ملايين «السنين، وعلى الصورة التي ادعاها الملحدون الشيوعيون ؟ فأجاب : «إن هذا ممكن، ولكن في كواكب أخرى غير كوكبنا هـذا» !

سبحان ربي العظيم ! ضيع عشرين سنة، ليقول لنا في النهاية : إنه عاجز، ونحن المسلمين نعلم أنه عاجز منذ البداية، لأن «الروح» لا يعلمها إلا رب العالمين الذي قال في كتابه العزيز : ﴿ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ سورة الاسراء الآية 85.

فكان جوابه إذن تهرباً واضحاً من الحقيقة حتى لا يقع في حرج.

تكذيب مذهب الملحدين :

إن أناسا في القديم والحديث أنكروا وجود الله لأنهم لم يدركوه بحواسهم، متصورين أن هذا هو الطريق إليه، ورموا المومنين بأنهم : واهمون، ضالون، خرافيون، مشوشون، وغير علميين، أما هم ــ الملحدون ــ فقد لقبوا أنفسهم بألقاب مزخرفة، وسموا أنفسهم بـ : العلمانيين، العقلانيين والأحرار.

إن أمثال هؤلاء الذين يقولون : «إنهم لا يؤمنون إلا بما أدركته حواسهم يكذبهم واقعهم المادي الذي يعيشونه، فهم مثلا يومنون بالجاذبية وقوانينها ولم يشاهدوها، بل رأوا فقط آثارها، يومنون بالعقل ولم يروا إلا آثاره، ويومنون بالمغناطيسية، وقد شاهدوا انجذاب الحديد إلى الحديد دون رؤية الجاذب، ويومنون بوجود الالكترون والنيترون، ولم يشاهدوا الكترونا ولانيترونا، فواقع أمرهم يدل على أنهم آمنوا بأشياء كثيرة لم تدركها حواسهم، ولكن آثارها هي التي دلتهم عليها، وهم فيها على يقين لا يخالطه شك، وهذا يعني بوضوح أن كثيرا من حقائق الوجود يومن بهاهؤلاء، لإحساسهم بآثارها دون إحساسهم بها ذاتها.

والعقل، وليس الحواس، هو الذي عَرَّفهم عليها، وإن كانت الحواس هي الآلة التي أعطت العقل أدوات الحكم حتى أصدر حكمه، لكنه لولا العقل، ما صدر حكم ولما كانت معرفة. بل الحقيقة أن الحواس تعطينا أحيانا صورا كثيرة وهمية، ولكننا نعرف الحقيقة بواسطة العقل وحده : فالعصا المغمورة في الماء

تبدو مكسورة، والخطوط المتوازية التي تفصل بينها خطوط تبدو غير متوازية، والارقام البيضاء تبدو أكبر من الأرقام السوداء، وشعورنا دائما أننا نسير ورؤوسنا إلى أعلى، سواء كنا في القطب الشمالي أو الجنوبي أو علي خط الاستواء، فمثل هذه الصور تُبيّن لنا بوضوح أن الحواس، لولا العقل، لأعطتنا أخطاء بدلا من حقائق، ولولا العقل لما كانت لنا أي معرفة.

فهل كان هؤلاء علي صواب عندما حصروا المعرفة كلها في الحواس ؟ وهل كانوا منطقيين مع أنفسهم عندما رفضوا الايمان بالله، لأنه لم تدركه حواسهم ؟ مع أنهم بفضل الآثار وحدها آمنوا بكل الحقائق التي لم يشاهدوها، والتي تشكل أكبر الحقائق التي عرفها الانسان ؟

اخترعوا الجهاز الذي يكتشف الحقيقة، هل كانت الحقيقة غير موجودة قبل اختراعهم للجهاز ؟ وبالتالي، فهل كان إنكارهم لها قبل اكتشاف الجهاز علميا ؟ ثم هل كل حقيقة علمية تكشفها الحواس أو الجهاز ؟ أليست الحقائق الرياضية وكثير من الحقائق الكونية لا طريق إليها إلا العقل والتأمل، وربط النتائج بالمقدمات ؟ ثم أليست كل قضية تحتاج إلى جهاز خاص يناسبها ؟ أو لا يكفيكم جهاز العقل للوصول إلى الله ؟

إن هذا الطريق الذي سلكه الملحدون طريق منحرف، لأن تصورهم تصور مخطئ، وهذا التصور المخطئ لطريق معرفة الله قديما وحديثا من أكبر العوامل التي أبعدت كثيرا من الناس عن طريق الايمان الصحيح بالله، مع أن مثل هذا التصور مخطئ بالبداهة، لأن العقل ببداهته يحكم أن الله خالق كل شيء، وأن خالق المادة ليس بمادة، لأن المادة لا تخلق المادة، وإذا كان منتهي إدراك الحواس في عالمنا هذا ـــ المادة المحسوسة فقط ـــ فلن يكون الله محل إدراكها. والذي يبدو أنه ما من أمة من الأمم أو كافر من الكافرين إلا وعندهم هذه الشبهة حول التصور الحسي للطريق إلى معرفة الذات الإلهية، فلقد سمعنا في عصرنا هذا أفرادا يجعلون عدم الرؤية سببا للإلحاد، وسمعنا كذلك دولا تصرح بهذا، كما صرحت بذلك إذاعة الاتحاد السوفياتي (روسيا حاليا) عقب إطلاق قمرها الصناعي الأول إلى الفضاء.

ومن طرائف أجوبة الفطرة على مثل هذا الاتجاه نكته يقال إنها وقعت في مدرسة ابتدائية، حيث وقف معلم ابتدائي يعطي تلاميذه درسا في الإلحاد،

فقال لهم : أترونني ؟ قالوا نعم. قال : فإذن أنا موجود. ثم قال : أترون اللوح ؟ قالوا نعم، قال : فاللوح إذن موجود، أترون الطاولة ؟ قالوا نعم قال : فالطاولة إذن موجودة، وأخيرا قال لهم : أترون الله ؟ قالوا : لا، قال : فالله إذن غير موجود — تعالى الله عما قال علوا كبيرا — فوقف أحد التلاميذ الأذكياء وقال : أترون عقل الاستاذ، قالوا : لا، قال : فعقل الاستاذ غير موجود !

ويبدو أن هذا الوهم الذي يتمسك به كثير من الكافرين قديم قِدَم الكفر، كما أنه أثر من آثار أمراض في النفس وفي القلب، وليس أثرا عن فكر سوّي، أو عقل مستقيم، أو إنصاف عادل.

فقد حدثنا القرآن الكريم أن الكافرين في كل عصر، كانوا يشترطون للايمان أن يُحسوا بالله عن طريق السمع أو الرؤية، وهذا بعض ما حدثنا به القرآن، ذاكرا علل هذا الاشتراط، وهي ذاتها الأمراض التي ينتج عنها هذا التصور الفاسد، والكلام الخاطئ، ويحدد القرآن الكريم أسباب هذا الطلب بأنها : الجهل، الكبر، الانحراف والظلم.

1. **الجهـل** : ﴿وقال الذين لا يعلمون، لولا يكلمنا الله أو تاتينا آية، كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم، تشابهت قلوبهم، قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾ البقرة / 118.

ويلاحظ في الآية أنها أشارت إلى كون هذا القول ليس كلام عالمين بل كلام جهال، وأن هذا الكلام ليس جديدا بل هو منطق الكافرين دائما قديما وحديثا، وذلك أثر من آثار تشابه القلوب، وأخيرا فانها تقرر أن الطريق إلى الله هي آياته، أي آثاره التي تدل عليه.

2. **الكِبْـر** : ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا، لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا، لقد استكبَرُوا في أنفسهم وعَتَوْا عُتُوّاً كبيرا، يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ الفرقان / 21 — 22.

وكما رأيناهم في الآية الأولى يريدون أن يسمعوا، نراهم هنا يريدون أن يروا، ولكن مَن هم الذين يريدون أن يروا ؟ إنهم الذين يتصورون أن الحياة الدنيا هي كل شيء وليس وراءها إلا العدم، وكما رَدَّت الآية الأولى عليهم بطريق غير مباشر، كذلك بينت هذه الآية أن عالَما غير هذا العالم، وفي ظل قوانين غير هذه القوانين، يرى الكافرون الملائكة، أما قوانين هذا العالم العادية فليس فيها

للحواس من عالَم الغيب نصيب، وإذا كانت الملائكة حسب قوانين هذا العالَم لا تُرى، فأولَى إذن أن تكون الذات الالهية كذلك. كما بينت الآية أيضا أن الكِبْر وحده هو الذي دفعهم إلى مثل هذا المنطق، وليس الوضع السويّ للانسان، الذي يرغب في الحق ويسلك إليه طريقه الصحيح.

3. **الانحـراف** : وآية أخرى تحدثنا عن فراعنة مصر، إذ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وقال فرعون ياهامان ابْنِ لي صرحا لعلّيَ أبلغ الاسباب، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى، وإني لأظنه كاذبا، وكذلك زُيِّن لفرعون سوء عمله وصَدَّ عن السبيل﴾ سورة غافر الآية 37.

والآية كما ترى تضمنت الرد في قولها : «وصَدَّ عن السبيل» فليس ما تَصَوَره فرعون طريقا يُعرَف به الله هو الطريق الصحيح، بل هو طريق خاطئ.

4. **الظلـم** : وآية أخرى تحدثنا عن اليهود الذين طلبوا هذا الطلب ظلما :

﴿وإذ قلتم يا موسى لن نُؤمِن لك حتى نرى الله جَهْرة، فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾ البقرة 551، وفي موضع آخر : ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، فقالوا : أرنا الله جَهرة، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾ النساء/153.

وكما ردت الآية الأولى على أمثال هؤلاء بشكل ضمني، فكذلك هنا أشعرتنا بالرد بكلمة : «بظلمهم»، فليس العدل هو الذي دفعهم إلى أن يطلبوا مثل هذا الطلب، بل الظلم، ظلم النفوس للحق، إذ تعرفه وتتنكر له.

وكما طابق قولُ الكافرين اليوم قولَهم قديما في هذا الموضوع، كذلك يطابق تهجمُهم اليوم تهجمَهم في الماضي، ففي الماضي يقص علينا القرآن قصة تهجمهم فيقول : ﴿قل ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم، بل قالوا أضغاث أحلام، بل افتراه، بل هو شاعر﴾ الانبياء/4 ــ 5.

فقد اتهموا المومنين بأنهم: «متوهمون، كاذبون وعاطفيون» وأصحابهم اليوم يتهمون المؤمنين بأنهم :«غير علميين، غير صادقين، مشوشون ومخدوعون».

ولئن سار على هذه الدروب كثير من الناس، فليس للمسلم صاحب القلب الكبير أن يقتفي أثر الضالين، فيقع فيما حذره الله منه : ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل، ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل﴾ البقر/108.